الهَدِيَّةُ
فِي
مَوَاعِظِ الإمَامِ ابْنِ تَيْمِيَة

تقديم

أبو إسحاق الحويني الأثري

أ. د. مُصْطَفى بن محمد حلمي
كُلّيّة دار العلوم - جامعة القاهرة

جمع وترتيب

عَادِل بن فتحي رياض

النَّاشِر
مكتبة البلاغ - دبي

حُقوقُ الطّبع محفُوظَة

الطّبعة الأولى

١٤١٨هـ / ١٩٩٨م

مكتبة البلاغ

دولة الإمارات العربيّة المتحدة
دبي - ص ب : ٥٣٨٤٠
هاتف : ٣٨٣٨٦٦ - فاكس : ٣٨٤٧٠٠

الهدية
في
مواعظ الإمام ابن تيمية

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلّى الله تعالى عليه ، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان وسلَّم تسليماً كثيراً.

أما بعد ، فلا تخفى على طالب العلم إمامة شيخ الإسلام ابن تيمية فى علوم الشريعة ، « فإن العلم كأنه قد اختلط بلحمه ودمه وسائره ، فإنه لم يكن له مستعار ، بل كان له شعار ودثار »[1] .

قال عنه الإمام ابن سيد الناس : كاد يستوعب السنن والآثار حفظاً ، إن تكلم فى التفسير فهو حامل رايته ، أو أفتى فى الفقه فهو مدرك غايته، أو ذاكر بالحديث فهو صاحب علمه وذو روايته ، أو حاضر بالنحل والملل لم يُرَ أوسع من نحلته فى ذلك ، ولا أرفع من درايته ، برز فى كل فن على أبناء جنسه ، ولم ترعينُ مَنْ رآه مثله ، ولا رأت عينُه مثل نفسه أ . هـ .

ولكن غاب عن كثير من الباحثين وطلاب العلم جانبٌ من حياة الشيخ قَلَّ مَنْ تعرض له ، وهو أخلاقه ، وعبوديته ، وابتهاله ، وجهاد نفسه ، والإخبات لربه، وكلماته الجامعة ، ومواعظه النافعة ، وانقياده للحق ، وتواضعه للخلق .

وبعض من أراد أن يتكلم عنه من تلك الناحية الروحيَّة ، جانَبَ الرشادَ وجعله من الصوفيَّة .

---

(١) «الأعلام العلية » ص ٢٠ .

وبعض من نظر إليه من ناحية العقيدة ومحاربته للبدع وكثرة ابتلائه بالسجن والخصوم ؛ ظن أنه لا يعرف إلا الرسوم .

ومن ذلك قول الشيخ عبدالحليم محمود – عفا الله عنه – وقد سأل أحدَ الباحثين عن الموضوع الذى يكتب فيه ، فقال له الباحث : أتناول بالدراسة قاعدة المحبة لابن تيمية . فتبسم الشيخ وقال: وهل عند ابن تيمية محبة! [1] .

هكذا قال الشيخ متعجباً – رحمه الله – فأُهدى هذا الكتاب إلى كل مَن تهاون بشأن شيخ الإسلام ، ولم يعرف قدره ، إلى من يظن أن عبودية الله لا تعرف إلا من كتب الصوفية ، وقد قال أبو البقاء السبكى : والله مايبغض ابن تيمية إلا جاهل أو صاحب هوى ، فالجاهل لا يدرى ما يقول ، وصاحب الهوى يصده هواه عن الحق بعد معرفته به [2] . ا . هـ

وتلك الهدية هى الجزء الأول من مواعظ شيخ الإسلام وكلماته الجامعة ، ويليه – إن شاء الله – الجزء الثانى ، وعن قريب يصدر نظيره لشيخ الإسلام أبى عبد الله الذهبى شمس الدين ، صاحب المواعظ الدقائق ، والكلمات الصواعق، التى تنزل على القلوب كالسِّياط ، فتخشع لها الجوارح والنِّياط ، ومن يطالع « سير أعلام النبلاء » يتجلى له ذلك دون خفاء .

وقد قسمت الكتاب إلى ثلاثة أقسام :

الأول : ذكر أحواله وعبادته .

الثانى : ذكر كلماته الجامعة .

الثالث : ذكر مجالس من مواعظه .

---

(١) « التصوف فى تراث ابن تيميةَ » ص ٧ .

(٢) « الرد الوافر » ص ٥٩ .

ومما يجدر التنبيه إليه أن تلك المجالس ليست بالمعنى المعروف عند العلماء ، وإنما انتقيتها وسبكتها مجالس للوعظ ، ليسهل اتخاذها كذلك .

والأقسام الثلاثة منتقاة من « مجموع الفتاوى » – الأجزاء العشرة الأولى [1] –، و « منهاج السنة النبوية » ، ومن ترجماته : المفردة « كالعقود الدرية » و « الرد الوافر » و « الأعلام العلية » وما جاء فى « الدرر الكامنة » و « الذيل على طبقات الحنابلة » ومن « جامع الرسائل » ، و « ناحية من حياته » لخادمه إبراهيم بن أحمد ، ومن نُقُول الإمام ابن القيم عنه فى كتبه « كالوابل الصيب »، « ومدارج السالكين » ، و « روضة المحبين » ، و « إغاثة اللهفان » وغير ذلك من الكتب التى تكلمت عن شيخ الإسلام .

وكما قلت آنفاً : ما تلك الهدية إلا طليعة منتقاة لمواعظ شيخ الإسلام ابن تيمية وعن قريب نعرض للقراء هذا الجانب من حياة مؤرخ الإسلام الذهبى (الجزء الأول) وبقية مواعظ شيخ الإسلام ابن تيمية (الجزء الثانى) .

والحمد لله رب العالمين .

بقلم

عادل فتحى رياض

٥ رجب ١٤١٧ هـ

١٦ نوفمبر ١٩٩٦ م

---

(١) ثم أضفت الأجزاء (١٢ ، ١٣ ، ١٤) ، وأرجأت سائر «الفتاوى» ومؤلفات الإمام الأخرى ، إلى الجزء الثانى من «الهدية» ؛ وبهذا أكون قد استقصيت – بفضل الله – ما يتعلق بزهد شيخ الإسلام ومواعظه وكلماته الجامعة .

القسم الأول

في ذكر أحواله وعبادته

لقد كان لشيخ الإسلام – رحمة الله عليه – من الأحوال والعبادات ما رسَّخ علمه في نفوس وقلوب أصحابه وبوأ له ذلك من المكانة العظمى في نفوس من جاء بعده الكثير والكثير ، قال تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ وقد قيل قديما «من لم ينفعك لحظه لم ينفعك وعظه (*)» ولذلك سَبَّقتُ أحوال وعبادة شيخ الإسلام على وعظه ليكون ذلك أنفع ، وهذا الذي وقفت عليه ، وظني أنني لم أقف على الكثير فمن ذلك :

* قال ابن القيم : ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه – من ذلك (١) أمراً لم أشاهده من غيره ، وكان يقول كثيراً : مالى شيء، ولا منى شيء ، ولا فيَّ شيء .

وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت :

أنا المُكَدِّى وابن المكدِّى (**) وهكذا كان أبى وجَدِّى

وكان إذا أُثنى عليه فى وجهه يقول : والله إنى إلى الآن أجدد إسلامى كل وقت وما أسلمت بعد إسلاماً جيداً .

وبعث إلىَّ فى آخر عمره قاعدة فى التفسير بخطه ، وعلى ظهرها أبيات بخطه من نظمه :

أنا الفقيرُ إلى رب البريات أنا المُسَيْكينُ فى مجموع حالاتى
أنا الظلومُ لنفسى وهْى ظالمتى والخيرُ إنْ يأتنا من عنده ياتى

---

(١) يريد خشوعه وذله وانكساره .

(*) وفي رواية «لفظه» .

(**) المُكَدِّى : الذى يلح في المسألة . وتمثل به الإمام افتقاراً إلى الله وإظهاراً لذُلِّه وانكساره له سبحانه وتعالى .

لا أستطيع لنفسى جلبَ منفعةٍ ولا عن النفس لى دفع المضراتِ
وليس لى دونه مولىً يدبِّرنى ولا شفيع إذا حاطت خطيئاتى
إلا بإذن من الرحمن خالقنا إلى الشفيع كما قد جاء فى الآياتى
ولست أملك شيئاً دونه أبدا ولا شريك أنا فى بعض ذرات
ولا ظهير له كى يستعين به كما يكون لأرباب الولايات
والفقر لى وصف ذات لازم أبدا كما الغنى أبداً وصف له ذاتى
وهذه الحال حال الخلق أجمعهم وكلهم عنده عبد له آتى
فمَنْ بغى مطلباً من غير خالقه فهو الجهول الظلوم المشرك العاتى
والحمد لله ملء الكون أجمعه ما كان منه وما من بعد قد ياتى أ.هـ [1]
[ثم الصلاة على المختار من مضر خير البرية من ماضٍ ومن آتى] [2]

* وقال – رحمه الله – : ما يصنع أعدائى بى ؟! أنا جنتى وبستانى فى صدرى ، إن رحت فهى معى لا تفارقنى ، إن حبسى خلوة ، وقتلى شهادة ، وإخراجى من بلدى سياحة .

وكان يقول فى محبسه فى القلعة : لو بذلتُ ملء هذه القلعة ذهباً ما عدل عندى شكر هذه النعمة . أو قال : ما جزيتهم على ما تسببوا لى فيه من الخير.

قال ابن القيم : وكان يقول فى سجوده – وهو محبوس – : اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ، ما شاء الله .

وقال لى مرة : المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالى ، والمأسور من أسره هواه .

---

(١) « المدارج » (١/٥٢٤ – ٥٢٥) .
(٢) زيادة من « العقود » ص ٣٧٥ .

ولما دخل إلى القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال :﴿ **فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ** ﴾ [الحديد : ١٣] .

قال ابن القيم : وعِلْمِ الله ، ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منه قط ، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم ، بل ضدها ، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق .

وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشاً ، وأشرحهم صدراً ، وأقواهم قلباً ، وأسرهم نفساً ، تلوح نضرة النعيم على وجهه .

وكنا إذا اشتد بنا الخوف ، وساءت منا الظنون ، وضاقت بنا الأرض أتيناه فما هو إلا أن نراه ، ونسمع كلامه ، فيذهب ذلك كله ، وينقلب انشراحاً وقوة ويقيناً وطمأنينة ، فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه ، وفتح لهم أبواباً فى دار العمل ، فأتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها أ . هـ [1] .

* وفى محنة الشيخ كان ثابت الجأش ، راسخ الجنان ، يقول خادمه إبراهيم ابن أحمد : فلما كان بعد صلاة العصر وقفت أبكى ، فقال لى الشيخ : لاتبك، ما بقيت هذه المحنة تبطىء . فقلت له : أفتح لك فى المصحف ؟ فقال: افتح . فطلع قوله تعالى : ﴿ **وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ** ﴾ [النحل ١٢٧- ١٢٨] فقال: افتح فى موضع آخره ، فطلع قوله تعالى: ﴿ **وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ** ﴾ [النمل : ٥٠] إلي آخرها ، فقال : افتح آخره، فطلع قوله تعالى ﴿ **مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَه ...** ﴾ [الفتح : ٢٩] إلى آخرها .

---

(١) « الوابل » ص ٦٩ - ٧٠ ، و « الذيل » ٢/٤٠٢ - ٤٠٣ .

فلما صلينا المغرب بقى يدعو بدعاء الكرب ، وأنزل الله عليه من النور والبهاء والحال شيئاً عظيماً ... كأن وجهه شمع يجلوه مثل العروس . أ . هـ[1] .

* وكان شيخ الإسلام – رحمه الله – ورعاً عفيفاً ، عابداً ناسكاً ، صواماً قواماً ، ذاكراً لله تعالى فى كل أمر وعلى كل حال ، رجَّاعاً إلى الله تعالى فى سائر الأحوال والقضايا ، وقَّافاً عند حدود الله تعالى وأوامره ونواهيه ، آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر بالمعروف ، لا تكاد نفسه تشبع من العلم ، فلا تروى من المطالعة ولا تمل من الاشتغال ،ولا تكل من البحث ، وقلَّ أن يدخل فى علم من العلوم من باب من أبوابه إلا ويفتح له من ذلك الباب أبواب ، ويستدرك مستدركات فى ذلك العلم على حُذَّاق أهله ، مقصوده الكتاب والسنة[2] .

* وقال – رحمه الله – : إنه ليقف خاطرى فى المسألة والشىء أو الحالة ، فأستغفر الله تعالى ألف مرة أو أكثر أو أقل ، حتى ينشرح الصدر ، وينحل إشكال ما أشكل .

قال : وأكون إذ ذاك فى السوق أو المسجد أو الدرب أو المدرسة ، لا يمنعنى ذلك من الذكر والاستغفار إلى أن أنال مطلوبى[3] .

* وقال الذهبى : كان إماماً متبحراً فى علوم الديانة ، صحيح الذهن ، سريع الإدراك ، سيال الفهم ، كثير المحاسن ، موصوفاً بفرط الشجاعة والكرم ، فارغاً

---

(١) « ناحية من حياة شيخ الإسلام » ص ٣١ .
(٢) « العقود » ص ٥ .
(٣) السابق ص ٦ .

من شهوات المأكل والملبس والجماع ، لا لذة له فى غير نشر العلم وتدوينه والعمل بمقتضاه [١] .

وقال أيضا : إنه دائم الابتهال ، كثير الاستغاثة والاستعانة به ، قوى التوكل، ثابت الجأش ، له أوراد وأذكار يُدْمِنُها [٢] .

* وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول : ربما طالعت على الآية الواحدة نحو مائة تفسير ، ثم أسأل الله الفهم ، وأقول يا معلِّم آدم وإبراهيم علمنى ، وكنت أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها ، وأمَرِّغ وجهى فى التراب وأسأل الله تعالى وأقول : يا معلم إبراهيم فهمنى [٣] .

* قال عنه تلميذه عمر البزار : وكان فى ليله متفرداً عن الناس كلهم ، خالياً بربه عزوجل ضارعاً ، مواظباً عل تلاوة القرآن العظيم ، مكرراً لأنواع التعبدات الليلية والنهارية ... وكان إذا أحرم بالصلاة تكاد تتخلع القلوب لهيبة إتيانه بتكبيره الإحرام ، فإذا دخل فى الصلاة ترتعد أعضاؤه حتى يميله يمنة ويسرة [٤] .

قال : وكان قد عرفت عادته ، لا يكلمه أحد بغير ضرورة بعد صلاة الفجر ، فلا يزال فى الذكر يسمع نفسه ، وربما يسمع ذكره من إلى جانبه ، مع كونه فى خلال ذلك يكثر من تقليب بصره نحو السماء ، هكذا دأبه حتى ترتفع الشمس ويزول وقت النهى عن الصلاة [٥] .

---

(١) « الذيل » (٢ / ٣٩٠) .
(٢) السابق (٢ / ٣٩٤) .
(٣) « العقود » ص ٢٦ .
(٤) « الأعلام العلية » ص ٣٨ .
(٥) السابق ص ٤٠ .

قال : وما رأيناه يذكر شيئاً من ملاذ الدنيا ونعيمها ، ولا كان يخوض فى شيء من حديثها ، ولا يسأل عن شيء من معيشتها ، بل جعل همته وحديثه فى طلب الآخرة ، وما يُقَرِّبُ إلى الله تعالى [1] .

قال ابن القيم : وحضرت شيخ الإسلام ابن تيمية مرةً ، صلى الفجر ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار ، ثم التفت إلىّ وقال : هذه غدوتى ، ولو لم أتغد الغداء سقطت قوتى .... وقال لى مرة : لا أترك الذكر إلا بنية إجمام نفسى وإراحتها لأستعد بتلك الراحة لذكر آخر [*] .

وقال : قال لى يوماً شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه – في شيء من المباح : هذا ينافى المراتب العالية ، وإن لم يكن تركه شرطاً في النجاة [**] .

* وقال له السلطان محمد بن قلاوون : إننى أخبرت أنك قد أطاعك الناس، وأن فى نفسك أخذ الملك .

فلم يكترث به ، بل قال له بنفس مطمئنة ، وقلب ثابت ، وصوت عالٍ سمعه كثير ممن حضر : أنا أفعل ذلك !! والله إن ملكك وملك المُغْل لا يساوى عندى فِلْسَيْن [2] .

* وكان ذا فراسة لا تكاد تخطىء ، قال ابن القيم : ولما طلب إلى الديار المصرية، وأريد قتله بعد ما أنضجت له القدور ، وقلبت له الأمور ، اجتمع أصحابه لوداعه ، وقالوا : قد تواترت الكتب بأن القوم عاملون على قتلك ،

---

(١) « الأعلام » ص ٥٦ .
(٢) السابق ٧٤ .
(*) « الوابل الصيب » ص ٦٣ .
(**) « المدارج » (٢/٢٦)

فقال : والله لا يصلون إلى ذلك أبداً . قالوا : أفتحبس ؟ قال : نعم ، ويطول حبسى ، ثم أخرج وأتكلم بالسنة على رءوس الناس [المدارج ٢ / ٤٩٠] .

لا مكان للدنيا فى قلبه ، وإنما نفسه تواقة لا ترضى إلا بجوار ربها ، شَدَّ مئزره ، وحَمل عصاه على عاتقه ، فلم يضعها حتى أتاه اليقين .

قال ابن القيم : « وسمعت شيخنا أبا العباس بن تيمية يقول – وقد عرض له بعض الألم ، فقال له الطبيب : أضر ما عليك الكلام فى العلم والفكر فيه والتوجه والذكر . فقال – : ألستم تزعمون أن النفس إذا قويت وفرحت أوجب فرحها له قوة تعين بها الطبيعة على دفع العارض ، فإنه عدوها ، فإذا قويت عليه قهرته ؟ فقال الطبيب : بلى.فقال:إذا اشتغلت نفسى بالتوجه والذكر والكلام فى العلم ، وظفرت بما يشكل عليها منه فرحت به وقويت فأوجب ذلك دفع العارض [١] . أ . هـ .

« وكان – رحمه الله – يتحرى التصدق بين يدى الصلاة والدعاء ما أمكنه ، لأنه إذا استحبت الصدقة بين يدى مناجاة النبى ﷺ ، فاستحبابها بين يدى مناجاة الله عند الصلوات والدعاء أولى » [٢] . [مفتاح دار السعادة ٢ / ٣٨٧]

ماذا يقول الواصفون له ... وصفاته جلت عن الحصْرِ
هو حجة الله قاهرة ... هوبيننا أعجوبة الدهْرِ
هو آية للخلق ظاهرة ... أنوارها أربت على الفَجرِ [٣]

---

(١) «مفتاح دار السعادة » ٢/١٧٠ / ١٧١ ومختصراً في «الروضة » صـ ٧٠ .

(٢) لأن نسخ وجوب الصدقة بين يدى مناجاة الرسول ﷺ لم يبطل حكمه بالكلية ، بل نسخ وجوبه وبقى استحبابه والندب إليه ، كما فى المصدر المذكور أعلاه .

(٣) الأبيات لابن الزملكانى فى « العقود » ص ٩ ، و «الذيل » ٢/٣٩٢ .

كأن العلم وُضِعَ بين عينيه ، أو اختلط بلحمه ودمه ، مذهبه الدليل ، وشيخه الخليل ﷺ .

* قال الذهبى : إن عُدَّ الفقهاء فهو مجتهدهم المطلق ، وإن حضر الحفاظ نطق وخرسوا ، وسرد وأبلسوا ، واستغنى وأفلسوا ... فإنه كان ربانى الأمة ، وفريد الزمان ، وحامل لواء الشريعة ، وصاحب معضلات المسلمين .

قال : يصدق عليه أن يقال : كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث [1] . أ . هـ .

حَبْرٌ تسربل منه دهره حِبَراً ... بحر تقاذف من أمواجه الدررُ
قام ابن تيمية فى نصر شرعتنا ... مقام سيد تيم إذ عصت مضرُ
فأظهر الدين إذ آثاره درست ... وأخمد الشرك إذا طارنت له شرُر [2]

قال ابن القيم : وحدثنى تقى بن شقير قال : خرج شيخ الإسلام ابن تيمية يوماً ، فخرجت خلفه ، فلما انتهى إلى الصحراء وانفرد عن الناس بحيث لا يراه أحد ؛ سمعته يتمثل بقول الشاعر :

وأخرجُ من بينِ البيوتِ لعلَّنى ... أحدِّثُ عنكَ القلبَ بالسرِّ خالِيَا (*)

أُحْرِقَتْ شهواته ، فطعامه الكفاف ، وشرابه دفع الظمأ ، ولباسه التقوى ، لم تشغله صاحبة ولا ولد .

* قال عمر البزار : أخبرنى غير واحد أنه مارآه ، ولا سمع أنه طلب طعاماً قطُّ ، ولا غداء ولا عشاء ، ولو بقى مهما بقى لشدة أشتغاله بما هو فيه من

---

(١) « العقود » ص ٢٤ - ٢٥ .
(٢) الأبيات لأبى حيان فى « الذيل » (٣٩٢/٢) ، و « الدرر الكامنة » (١٥٢/١) .
(*) « الروضة » ٢٨١ .

العلم والعمل ، بل كان يؤتى بالطعام ، وربما يترك عنده زماناً حتى يلتفت إليه، وإذا أكل ، أكل شيئاً يسيراً [1] .

قال : وكانت بذاذة الإيمان عليه ظاهرة ، لا يرى متصنعاً فى عمامة ولا لباس ولا مشية ولا قيام ولا جلوس ، ولا يتهيأ لأحد يلقاه ، ولا لمن يرد عليه من بلد [2] .

وكان يدنى الفقير الصالح ويكرمه ويؤنسه ويباسطه بحديثه المستحلى زيادة على مثله من الأغنياء ، حتى إنه ربما خدمه بنفسه ، وأعانه بحمل حاجته ، جبراً لقلبه ، وتقرباً بذلك إلى ربه [3] .

وأما حاله مع أعدائه وخصومه فعجيبة ؛ قال ابن القيم : وما رأينه يدعو على أحد منهم قط ، وكان يدعو لهم .

وجئت يوماً مبشراً له بموت أكبر أعدائه ، وأشدهم عداوة وأذى له ، فنهرنى وتنكر لى واسترجع ، ثم قام من فوره إلى بيت أهله فعزاهم ، وقال : إنى لكم مكانه ، ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه [المدارج ٢ / ٣٤٥] .

* أما حال الشيخ فى جهاد أعداء الإسلام فأكتفى فيه بقصة واحدة أختم بها هذا القسم من الكتاب .

قال أحد أمراء الشام : قال لى الشيخ – يوم اللقاء ، ونحن بمرج الصُّفَّر ، وقد تراءَ الجمعان – : يا فلان ، أو قفنى موقف الموت .

(١ ، ٢) « الأعلام » ص ٥٥ – ٥٦ .

(٣) السابق ص ٥٢ .

قال : فسُقتُه إلى مقابلة العدو ، وهم منحدرون كالسيل ، تلوح أسلحتهم من تحت الغبار المنعقد عليهم .

ثم قلت له : يا سيدى ، هذا موقف الموت ، وهذا العدو قد أقبل تحت هذه الغبرة المنعقدة ، فدونك ما تريد .

قال : فرفع طرفه إلى السماء ، وأشخص بصره ، وحرك شفتيه طويلاً ، ثم انبعث وأقدم على القتال ، وأما أنا ، فخيل إلىّ أنه دعا عليهم ، وأن دعاءه استجيب منه فى تلك الساعة .

قال : ثم حال القتال بيننا والالتحام ، وما عدت رأيته حتى فتح الله ونصر، وانحاز التتار إلى جبل صغير ، عصموا نفوسهم به من سيوف المسلمين تلك الساعة وكان آخر النهار .

قال : وإذا أنا بالشيخ وأخيه يصيحان بأعلى صوتيهما ، تحريضاً على القتال، وتخويفاً للناس من الفرار .

فقلت : يا سيدى ، لك البشارة بالنصر ، فإنه قد فتح الله ونصر ، وها هم التتار محصورون بهذا السفح ، وفى غد – إن شاء الله تعالى – يؤخذون عن آخرهم . قال : فحمد الله تعالى ، وأثنى عليه بما هو أهله ، ودعا لى فى ذلك الموطن دعاءً وجدت بركته فى ذلك الوقت وبعده [1] . أ . هـ .

* هذه قطرة من بحر لجى عن أحوال المجدد شيخ الإسلام ، لعلها تصادف قلباً زكياً وعقلاً ذكياً ، وهمة تريد أن تلحق بالصالحين ، وعبداً جعل نفسه وقفاً لحمل راية الإسلام ، « لم تملكه الرسوم ، ولم تقيده القيود ، ولم يكن

---

(١) « العقود » ص ١٧٨ .

عمله على مراد نفسه ، وما فيه لذتها وراحتها من العبادات ، بل هو على مراد ربه – ولو كانت راحة نفسه ولذتها فى سواه – ملبسه ماتهيأ ، ومأكله ما تيسر واشتغاله بما أمر الله به فى كل وقت بوقته ، ومجلسه حيث انتهى به المكان ووجده خالياً ، يأنس به كل محق ، ويستوحش منه كل مبطل ، كالغيث حيث وقع نفع ، وكالنخلة لا يسقط ورقها ، وكلها منفعة حتى شوكها ، فواهاً له ، ما أغربه بين الناس ! وما أشد وحشته منهم ! وما أعظم أنسه بالله وفرحه به ، وطمأنينته وسكونه إليه ! والله المستعان »[1] .

---

(١) « المدارج » (١/٩٠) باختصار .

القســـم الثانـــى

فـــى ذكـــر كلمـاتـــه الجامعـــة